حمامات السوق النابلسية وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال العصر الإسلامي
دراسة أثارية حضارية

دكتور /عادل محمد زيـــادة
المجلس الأعلى للآثار بالقاهرة

مقدمـــــة

قامت على أيدي ملوك وأمراء بلاد الشام , بل والمدن الإسلامية بصفة عامة , وكذلك على أيدي رجالهم من الأعيان والعلماء والتجار العديد من المنشآت المعمارية التي كانت تهدف إلى خدمة المجتمع في مختلف المجالات ، وتنوعت تلك المنشآت فكان منها العمائر الدينية كالمساجد والجوامع والزوايا والخانقاوات والمدارس وغيرها ، ومنها العمائر التي اختصت بتقديم الرعاية الاجتماعية كالبيمارستانات والحمَّامات .

وقد وقع اختياري على تقديم دراسة مبسطة ومحددة حول نوع من العمائر الاجتماعية التي تميزت بكثرتها وانتشارها الواسع في المدن الإسلامية لتقديم أهم الخدمات المطلوبة والملحة على المجتمع الإسلامي , وأقصد بتلك العمائر حمَّامات السوق , وأما عن خدماتها الضرورية للمجتمع فتتلخص في الحفاظ على النظافة والطهارة التي تعين على أداء الواجبات والفروض المنوطة بكل فئات المجتمع الإسلامي , فضلاً عما تمخضت عنه تلك العمائر من عادات وتقاليد انتشرت في كل مجتمعات المدن الإسلامية والتي تندرج بالفعل تحت مفهوم الفنون الشعبية في المجتمع الإسلامي بداية من الأسلوب المعماري الإسلامي الذي تميزت به الحمَّامات وحتى حفلات الزواج والختان وغيرها من العادات والتقاليد التي أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوجود الحمَّامات في المدن الإسلامية .

وعلى اعتبار أن مدينة نابلس من أهم مدن الشام وأقدمها نشأة , فقد شهدت أيضاً تشييد العديد من حمَّامات السوق على مدار العصر الإسلامي لم تختلف في تخطيطها وعناصرها المعمارية والفنية عن مثيلاتها في بقية مدن الشام وخاصة دمشق , ولكن من سوء الطالع فقدت نابلس العدد الأكبر من هذه الحمَّامات ولم يتبق منها إلا النذر اليسير , مثلها في ذلك مثل بعض المدن الإسلامية ، وقد ساعد على ذلك انصراف أفراد المجتمعات الإسلامية عن استخدام هذه الحمَّامات وتضمين منازلهم حمَّامات خاصة , وقد تسبب ذلك في تناقص أعدادها بشكل ملحوظ .

وستتناول الدراسة أهمية البحث في هذا الموضوع , وكذلك تناول الوصف المعماري لحمَّامات السوق الباقية بمدينة نابلس ومميزاتها المعمارية كتراث معماري شعبي , نبدأها بتعريف الحمام لغوياً ثم الأصول الأولى لنشأته عند الإغريق والرومان وكيفية اقتباس المسلمين لفكرته وإعمال الفكر المعماري الإسلامي في تشييده بما يتلاءم مع الذوق والفن الإسلامي , ثم تتناول الدراسة العادات والتقاليد الاجتماعية المتمثلة في الفنون الشعبية من حفلات العرس والختان والفنون الأخرى المتعلقة بالحمَّامات .

1. أهمية الدراسة

في الواقع أن هذا الموضوع كان في حاجة إلى دراسة علمية متكاملة مستوفاة وقد هدفت إلى أن يكون هذا البحث خطوة في تأصيل قيم مجتمعنا الإسلامي وإلقاء الضوء على جذور هذه القيم وذلك بإبراز الدور الحضاري لهذه العمائر الباقية من حمَّامات نابلس والتعرف على أصولها وتطورها ودورها في المجتمع الإسلامي بنابلس ، وما كانت تؤديه من خدمات اجتماعية وصحية , خاصة وأن المكتبة الأثرية تفتقر إلى مثل هذه الدراسة عن حمَّامات السوق بمدينة نابلس .

2. تعريف الحمَّام

الحمَّام - مشدداً - هو مفرد الحمَّامات ؛ وهي بيوت الاستحمام المعروفة , وهو مذكر وليس مؤنثاً كما جاء في التهذيب عن أهل اللسان لأنه من الحميم وهو الماء الحار ، والحميمة هو الماء الذي يُسخَّن ، فيقال أحموا الماء أي أسخنوه ، وأيضاً حَمَّمت الماء أي سخنته ، وكل ما سُخِّن فقد حُمِّم . وقال بن بَرِّيّ : وقد جاء الحمَّام مؤنثاً ، بينما قال ابن سِيدَهْ : والحمَّام الديماس مشتق من الحميم مذكر تذكِّره العرب والجمع حمَّامات . واستَحَمَّ إذا اغتسل بالماء الحميم ، وأحَمَّ نفسه إذا غسلها بالماء الحار ، والاستحمام هو الاغتسال بالماء الحار .

هذا وقد ورد لفظ الحمَّام بصيغة المؤنث في النص التأسيسي لحمَّام بشتاك بالقاهرة حيث ورد بصيغة "هذه الحمام المباركة" (لوحة 222) ، وقد ورد أيضاً بصيغة المذكر وذلك في النص التأسيسي لحمَّام السلطان إينال بالقاهرة أيضاً حيث جاء فيه "هذا الحمام المبارك" , وبالإضافة إلى ذلك فقد ورد في وثائق العصر المملوكي مؤنثاً .

ويذكر الإمام المناوي أن أول من وضع الحمَّام الجن حيث اتخذوه لسليمان عليه السلام حين تزوج بلقيس فوجد في ساقيها خموشة فسألهم عما يزيلها فبنوه له واتخذوا له النورة ، ودليل ذلك ما رواه البخاري في تاريخه عن أبي موسى الأشعري أن أول من دخل الحمَّامات وصُنعت له النورة سليمان بن داود فلما دخله وجد حَرَّه وغَمَّه فقال: "أواه من عذاب الله أواه" .

3. نشأة حمَّامات السُّوق وأصولها التاريخية

وُلدت فكرة بناء الحمَّامات العامة التي عُرفت كمنشآت معمارية تقوم بدور كبير إلى جانب دورها في النظافة والطهارة - في تقديم الرعاية الاجتماعية في كثير من المجتمعات على مرِّ العصور المختلفة بسبب ما أوجبته العقائد الدينية وطقوسها منذ القدم في استخدام الماء للنظافة والطهارة .

وقد يكون من الصعب تحديد الوقت الذي عُرفت فيه الحمَّامات كمنشآت معمارية عامة عند الإغريق فالبرغم من أن هوميروس شاعر اليونان هو أول من تحدث عن أهمية الحمَّامات الساخنة واعتبرها خطوة من خطوات العلاج الطبيعي واسترداد الصحة والحيوية ، إلا أن الحمَّامات التي أشار إليها كانت حمَّامات خاصة ، وغلب على الإغريق استعمال الماء البارد في الاستحمام ، فضلاً عن استعمالهم الماء الساخن الذي كانوا يعتبرونه نوعاً من الرفاهية . ويُستدل على وجود الحمَّامات من خلال بعض المناظر والرسوم المسجلة على الأواني والزهريات التي ترجع إلى الفن الإغريقي والتي أمدتنا بتسجيل لمراحل تطور الحمَّامات العامة ووسائل الاستحمام - في تلك الفترة - على أن أصل الحمَّامات العامة يرجع إلى بلاد اليونان ، وربما كانت تلك الحمَّامات التي سجلتها رسوم هذه الفترة حمَّامات ذات مياه باردة حيث لا يوجد ما يُستدل من خلاله على أنها قد خضعت لإحدى طرق التسخين ، وربما كانت بذلك خطوة أولى نحو خطوات تطور الحمَّام . وكان انتشار الحمَّامات العامة عند الإغريق أمراً طبيعياً في مجتمع قليل الماء لا يعرف نظام إمداد المباني بالمياه عن طريق الأنابيب .

وقد عرف قدماء اليونانيين حمَّامات البخار الساخن منذ القرن الخامس قبل الميلاد حيث أصبحت بديلة عن الميادين الرياضية ، وكان يُطلق عليها الـ Tholos وتعني الحجرة الساخنة ، وكان هذا النوع من

الحمَّامات عبارة عن مبنى دائري تعلوه قبة ضخمة بها صرة برونزية بالوسط ذات سلسلة تُرفع وتُسدل إذا ما أريد تقليل درجة الحرارة أو زيادتها بالإضافة إلى فائدتها المعمارية حيث كانت تعمل على تخفيف الثقل عن القبة الضخمة . وكانت أرضيته مفروشة بالفسيفساء ذات الرسوم المختلفة متعددة الألوان ، وكانت الحرارة تُوَّلد به في البداية عن طريق تسخين أحجار صغيرة تُرش بالماء البارد فيتصاعد منها البخار ، إلى أن ابتُكرت غرف التسخين السفلية المعروفة باسم "الهيبوكاوست" Hepocawest والتي يرجع الفضل في ابتكارها أيضاً إلى اليونانيين القدماء ، تلك الطريقة التي ظل يعمل بها الحمَّام بعد ذلك حتى القرون الأولى في العصر الإسلامي, وتتلخص في تسخين الأرضيات عن طريق غرف التسخين بأسفل حجرات الحمَّام . ثم حدث تطور آخر في نظام التسخين عندما ابتكر الإغريق أيضاً نظاماً ساد فيما بعد عند الرومان وهو ما يُطلق عليه اسم سسبنسورا Suspensurae ويعتمد هذا النظام على الجدران المزدوجة المبنية من نوع خاص من القرميد المفرغ (المفتوح الجوانب) والتي ينبعث منها الهواء الساخن داخل حجرات الحمَّام.
وعندما ورث الرومان الحمَّام الإغريقي كمنشأة عامة أخذوا في تطويره وزيادة ملحقاته ، وتعود أولى الحمَّامات الرومانية إلى القرن الثاني قبل الميلاد واستمرت في تطورها حتى وصلت أوج ازدهارها في القرنين الثالث والرابع الميلاديين . وقد تفنن الرومان في بنائها بشكل كبير لم يجاريهم فيه أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين حيث أُضيف إليها مبنىً جديداً يفوقها حجماً ، وزُوِّدت بأحواض الماء البارد والفاتر والساخن ، كما أُضيف إليها غرف لتغيير الملابس بالإضافة إلى الملاعب الرياضية المغلقة وقاعات المحاضرات العامة .
وجدير بالذكر أن الحمَّام في المدن الإسلامية كان من بين المنشآت المعمارية التي تعددت الآراء بشأن أصلها . فيرى " بلانهول " أن الحمَّام في المدينة الإسلامية هو الترما Therma أي الحمَّام اليوناني القديم ويخالفه في ذلك " جرنباوم " حيث يعتقد أن الحمَّام الإسلامي لا يمكن أن يكون وريث الحمَّام اليوناني ، بينما يرى " بلباس " أن الحمَّامات الإسلامية مقتبسة من الحمَّامات الرومانية التي كان لها تأثيراً مباشراً عليها ، وربما اشتُقت أيضاً من الحمَّامات البيزنطية أو السورية التي ترجع إلى القرون الأولى للميلاد والتي كانت على هيئة أكثر بساطة .

4. تخطيط حمَّامات السوق قبل العصر الإسلامي

خضع الحمَّام الروماني إلى تخطيط ثابت يتكوَّن من ثلاثة أقسام رئيسية عبارة عن ثلاث قاعات متتالية تبدأ بالقاعة الأولى وهي الباردة Frigidarium وهي عبارة عن فناء كبير أُلحقت به أبنية من ثلاث جهات لغرف خلع الملابس والتدليك وغيرها ويتوسطه حوض كبير للمياه الباردة مخصص للسباحة إلى جانب أحواض صغيرة للاغتسال , يلي القاعة الباردة ، القاعة الثانية وهي الدافئة حيث درجة حرارة متوسطة بين البارد والساخن Tepidarium وهي على هيئة بهو كبير يمثل مركز الحمَّام ، وقد أُعدت هذه القاعة للإقامة والتسلية والمناقشات والاستراحة لأوقات طويلة ، وتشتمل هذه القاعة على أحواض مياه دافئة تساعد على تدرج حرارة الجسم للوصول إلى المياه الساخنة بعد ذلك ، وهي مغطاة بأقبية متقاطعة . وتعتبر القاعة الثالثة وهي الساخنة Caldarium أهم أجزاء الحمَّام ، وهي قاعة مستديرة تشتمل على حوض مياه ساخنة ، ويغطيها قبة ضخمة وأُنشئت بأسفل أرضية هذه القاعة غرف التسخين السفلية وممراتها التي صُمِّمت بشكل منحدر للداخل حتى يتسنى للتيارات الهوائية الساخنة أن تسري

بداخلها . وبالإضافة إلى هذه القاعات الثلاث أنشأ المعمار عن يمينها ويسارها غرف كثيرة لخلع الملابس والألعاب الرياضية وقاعات للقراءة والاستراحة وغير ذلك من وسائل رياضة الفكر والجسم ، وزيادة في الفخامة استعمل الفنان الروماني أنفس أنواع الرخام الملون والمرمر المعرق والجرانيت والفسيفساء اللامعة في تغشية الجدران .

5. المدن الإسلامية وضرورة تشييد الحمَّامات

ورثت الحضارة الإسلامية الحمَّامات العامة ضمن ما ورثته من منجزات الحضارات السابقة عليها فقد انتشرت الحمَّامات في مدن العالم الإسلامي شرقاً وغرباً . وهي كمنشآت اجتماعية تعتبر دخيلة على العمارة الإسلامية ، إذ أن العرب المسلمين الأوائل لم يألفوا استعمال الماء الغزير لا قبل الإسلام ولا في صدره . ولكن ضروريات حياتهم جعلتهم يستقون فكرة الحمَّام العام البيزنطي – الروماني ويضعونه في مكانة لم يحتلها من قبل في المدن الرومانية نفسها، وجعلوا منه مرفقاً عاماً شعبياً بالمعنى الصحيح، ذلك أن المدن الرومانية لم تعرف - حتى في أوج ازدهارها - ذلك العدد الهائل من الحمَّامات الذي غصَّت به المدن الإسلامية، ويرجع ذلك بدون شك لاختلاف الدَوْر الذي لعبته تلك الحمَّامات في كل من المدن الرومانية والمدن الإسلامية، فقد كانت في الأولى للأثرياء والرياضيين ونخبة من المجتمع، كما كان الغرض منها اللهو والترفيه والمتعة ، أما في الثانية فقد كانت للناس كافة من أجل أداء حاجة ضرورية أو القيام بواجب مفروض وأصبح كل ما يدور حولها من خدمات وعادات وحكايات أسطورية لم يكن إلا نتيجة لارتباطها بكل طبقات المجتمع بشكل دائم وفي مناسبات كثيرة .

وقد كَثُر إنشاء الحمَّامات العامة في المدن الإسلامية ، ويرجع ذلك لارتباطها بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر ، ولعدم مقدرة العامة على تضمين منازلهم حمَّامات خاصة ، وارتبطت كذلك برغبة القادرين على إنشاء هذه الحمَّامات في استثمار أموالهم في إنشائها لما تدره من ريع وفير لشدة الطلب عليها هذا إلى جانب الاهتمام بتشييدها كأوقاف على أعمال الخير والبر .

6. تخطيط الحمَّامات في المدن الإسلامية

أُقيمت الحمَّامات في المدن الإسلامية بصفة عامة لخدمة كافة سكانها , لذلك كثر إنشاؤها لتلبية حاجات وظيفية ، مما دفع سلطات المدينة أن تنظم إنشاءها وما يتصل بتزويدها بمصادر المياه وقنوات الصرف ، وما يصدر عن بنائها من دخان تحكَّم أحياناً في تحديد مواضعها وأيضاً وحداتها .

طوَّر المسلمون تخطيط وعمارة الحمَّامات بما يتوافق مع طبيعة المناخ وبما يتوافق أيضاً مع عاداتهم وتقاليدهم ، لذلك عَرَفَت الحمَّامات بالمدن الإسلامية مُخَطَّطيْن اثنين من حيث الشكل : أولهما متأثر بالتخطيط البيزنطي احتلت فيه القاعة الدافئة المكانة الأولى بين بقية القاعات ، أما المخطط الثاني فقد كان طولي تصطف فيه قاعات مستطيلة بطريقة طولية متتالية ، تحتل فيه القاعة الأولى (الباردة) بدل الدافئة مركز الصدارة .

وإذا كانت تعاليم الإسلام قد غيَّرت إلى حد ما في عمارة الحمَّام المتوارث من الحضارات السابقة , فإنها في الوقت ذاته قد حافظت بلا شك على التصميم والهيكل المعماري له ، ولم يُتناول في هذا التعديل سوى

الزخارف والصور وكذلك النسب بين القاعات ، وذلك نظراً لغياب استعمالات وبروز أخرى ، وأيضاً زوال عادات وظهور غيرها وكذلك التغير الذي طرأ على المجتمع الإسلامي خلال العصور المختلفة .
يُعَدُّ تخطيط حمَّام سرجلا (شكل رقم 30) أول نموذج حقيقي لتخطيط الحمَّامات الشرقية ، واعتُبر هذا الحمَّام أول مرحلة من مراحل التطور من التخطيط الروماني إلى مرحلة أكثر شرقية تتماشى مع الشرق وطبيعته , وهو يمثل مرحلة انتقالية إلى تخطيط الحمَّام في العصر الإسلامي بصفة عامة ، . واشتمل الحمَّام لأول مرة على ثلاثة أقسام متجاورة تبدأ بقاعة خلع الملابس (المسلخ) ويليها القسم الثاني وهو الدافئ وهو عبارة عن قاعة أُعدت بحيث تكون تمهيداً لدخول القسم الثالث والذي يمثله القاعة الساخنة وهي أهم أقسام الحمَّام . ومع مرور الزمن أصبح الحمَّام في المدن الإسلامية ذو نظام خاص مميز عن أصله الأول حيث أصبح عبارة عن ثلاثة أقسام : عُرف الأول باسم "البراني" أو"المسلخ" وهو القسم الخارجي للحمَّام ، وعُرف القسم الثاني باسم "الوسطاني" أو"بيت أول" وهو أقل مساحة من سابقه وغالباً ما كان هذا القسم مزدوجاً في حمَّامات المدن الشامية بصفة عامة فهناك وسطاني أول يليه الوسطاني الثاني ، وهو قسم دافئ متوسط الحرارة ، أما القسم الثالث فقد كان يُعرف باسم "الجواني" أو"بيت الحرارة" وهو قسم ساخن أشد في حرارته من الوسطاني ويعتبر هو الحمَّام الحقيقي بين هذه الأقسام ، وهو متصل ببيت النار "المستوقد" .

7. حمَّامات السوق الباقية بمدينة نابلس

لا تزال مجموعة من المباني الأثرية من مختلف العصور التاريخية الإسلامية التي مرت على نابلس قائمة حتى اليوم داخل المدينة ، فيوجد ما يقرب من خمسة وستين أثراً إسلامياً ما بين مساجد، ومقامات، وزوايا، وخانات، وقصور، وأسبلة، ومدارس وحمَّامات , وتركزت أهم الآثار الإسلامية في الأحياء القديمة بمدينة نابلس، مثل حي الياسمينة والقيسارية والعقبة والقصبة وغيرها .
تُعد حمامات السوق من أشهر المعالم الأثرية في نابلس على الرغم من أن عددها قد تقلص وتضاءلت أهميتها بالمدينة حيث هُجر بعضها وتحول البعض الآخر إلى مرافق أخرى تقدم أنشطة مختلفة , مثل حمام الخليلي وحمام الريشة وحمام الدرجة وحمام القاضي وحمام التميمي وحمام النساء. وتميزت نابلس بأنها كانت تستمل على أكبر عدد من حمَّامات السوق بين المدن الفلسطينية الأخرى .
نظراً لافتقار حمَّامات السوق النابلسية للدراسات العلمية الحديثة وكذلك عدم ذكرها بالمصادر العربية القديمة - على حد علمي - بالقدر الذي يساعدنا على التعرف على تاريخ تشييدها أو حتى العصر التي شُيدت فيه , تجدر الإشارة إلى أن ما نشر عن تاريخ هذه الحمَّامات من جانب بعض المجتهدين والهواة قد جانبه الصواب تماماً لعدم استناده على أسس علمية أو تاريخية ولا تخرج جميعها أو معظمها على اجتهادات شخصية عشوائية وأخرى عبارة عن أقاويل تناقلتها الأجيال وهي في الحقيقة بعيدة عن الصدق والصواب . لكننا نستطيع أن نقرر أن فكرة تصميم الحمَّام وعناصره المعمارية التي نص عليها الفكر المعماري الإسلامي وحرص معماريو المدن الإسلامية على تنفيذها هي نفسها التي اتبعها وسار عليها معماريو العصر الإسلامي بمدينة نابلس يؤكد ذلك أن الحمَّامات الأثرية الباقية بالمدن الشامية بصفة عامة اتسمت بطابع خاص يميزها عن عمائر المدن غير الشامية ومن بينها الحمَّامات التي بُنيت بمدينة نابلس , ونضف إلى ذلك العادات والتقاليد التي ترتبت على وجود الحمَّامات بالمجتمع الشامي خلال العصر

الإسلامي هي نفسها التي كانت موجودة بمدينة نابلس كسائر المدن الشامية وغيرها .
وعلى الرغم من تعدد تخطيط الحمَّامات إلا أنها تشابهت على مَرِّ العصور التاريخية بمدن الشام ولم تختلف إلا في تفاصيل تكاد تكون بسيطة . وقد استمرت هذه التخطيطات والتكوينات المعمارية منذ العصر الأموي حتى العصر العثماني دون أن يلحق بها تغييرات جوهرية ، حيث ظلت أقسام الحمَّام الثلاثة كما هي: البراني - الوسطاني – الجواني , إلى جانب الملحقات الأخرى من مستوقد وبئر وساقية وغيرها . وتميزت بعض العناصر المعمارية بسمات خاصة في العصرين المملوكي والعثماني حيث تحرى معماريو وفنانو هذين العصرين الدقة والإتقان في عمارة وزخرفة مبانيهم حتى أصبحت عمارة الحمَّامات على درجة عالية من النضج الفني والهندسي , ومما لا شك فيه أن مدينة نابلس قد شهدت هذه التخطيطات في عمارة الحمَّامات كواحدة من مدن الشام ذات المكانة الهامة .
ومن المؤسف أننا لم نجد غير حمَّامين جديرين بالدراسة لنستدل من خلالهما على النمط المعماري الذي كان متبعاً في عمارة الحمَّامات بمدينة نابلس كإحدى مدن الشام والذي يكاد لا يختلف عن ذلك النمط السائد في مدن الشام كدمشق وحلب بصفة خاصة أو ذلك المتبع في بقية المدن الإسلامية شرقاً وغرباً , وهما حمام الشفاء وحمام السمرة .

1/7 حمَّام الشفاء

1/1/7 الموقع والتاريخ

يقع حمَّام الشفاء بحي القصبة بالمدينة القديمة في نابلس ، في منطقة شارع النصر مقابل جامع البيك . وقد تضاربت أقوال الكتاب من الهواة حول تاريخ بناء هذا الحمَّام أو حتى نسبته إلى أحد العصور الإسلامية , ولكن من خلال دراستنا وأبحاثنا في تخصصنا الدقيق في عمارة الحمَّامات كأحد أفرع العمارة الإسلامية المميزة , نستطيع أن نقرر أن هذا الحمَّام على وضعه الحالي وجدرانه المشيدة بالحجارة وقبابه المتميزة ومساحته التي بُني عليها يمكن نسبته إلى العصر العثماني ، ذلك أن التخطيط الهندسي للحمَّامات - كما سبقت الإشارة – ظل على نمط واحد منذ العصر الفاطمي حتى نهاية العصر العثماني , ولم تكن هناك اختلافات جوهرية سواء في التخطيط أو العناصر المعمارية الخاصة بالحمَّامات إلا في أضيق الحدود وقد فرضتها ظروف معينة قد تكون مناخية أو تتعلق بمساحة الأرض التي شُيد عليها الحمَّام وما إلى ذلك , وطالما لا يوجد عنصر بعينه يميز المبنى عن غيره من عصر إلى عصر , وأيضاً لافتقار هذا الحمَّام إلى أي نقش كتابي يمكننا من تأريخه , وقبل كل ذلك افتقاره لذكر المؤرخين في المصادر العربية القديمة فليس أمامنا سوى نسبته إلى العصر العثماني كآخر عصر إسلامي شهد تشييد وعمارة حمَّامات السوق .

2/1/7 الوصف المعماري للحمَّام وعناصر التكوين

تَمَيَّز حمَّام السوق بمدن الشام في جميع العصور الإسلامية التي مرت عليه بتخطيط لم يخرج عن كونه ثلاثة أقسام تتدرج فيها الحرارة من قاعة البراني إلى الوسطاني فالجواني ، علاوة على المقاصير أو الخلاوي الملحقة بكل من الوسطاني والجواني ، فضلاً عن "القميم" وهو مكان تسخين المياه (بيت النار) .

1/2/1/7 المدخـــــل
جاء مدخل حمَّام الشفاء - كما جرت العادة في مداخل الحمَّامات – بسيط خال من الزخرفة (لوحة رقم1) , والحق أن هناك من العمائر ما حظي فيها المدخل باهتمام كبير ومميز مثل العمائر الدينية على وجه الخصوص ، ومنها ما قل فيها شأنه والاهتمام بعمارته وزخرفته وإظهار الناحية الجمالية فيه مثل مداخل الحمَّامات بشكل عام , وعلى أي حال ارتبطت نوعية المداخل ومواضعها ارتباطاً وثيقاً بالغرض الوظيفي للحمَّامات ومن هنا نجد مداخل الحمَّامات تتسم غالباً بضيق فتحاتها .

2/2/1/7 البراني (قاعة الاستقبال)
يؤدي المدخل إلى القاعة الأولى في الحمَّام وهي أغنى قاعات الحمَّام بعناصرها المعمارية والفنية والتي يُطلق عليها قاعة البراني أو المسلخ أو المشلح أو قاعة الاستقبال (لوحة رقم2) , وهو القسم المخصص لاستقبال رواد الحمَّام ومنه يغادرونه ، فيه يخلعون ويرتدون ملابسهم قبل وبعد الحمَّام ، كما أنه مُعَّد أيضاً - خاصة للنساء - لإحياء بعض المناسبات الاجتماعية المتعلقة بتقاليد الحمَّام مثل الخطبة والنفاس . ومن هنا اختلف تخطيط قاعة البراني وأسلوب بنائها عن باقي أقسام الحمَّام التي تتطلب الحفاظ على الحرارة وعدم تبديدها . وتتكون هذه القاعة من درقاعة وسطى مربعة المسقط فُرشت أرضيتها ببلاطات حجرية وتتوسطها فسقية سداسية الأضلاع (لوحة رقم5) ينطلق من مركزها نافورة رخامية , وعلى الجوانب الأربعة للدرقاعة أربعة إيوانات مختلفة الأعماق يطل كل منها على الدرقاعة بكامل اتساعه بعقد حجري مدبب (لوحة رقم3) , ويشغل جوانب الإيوانات مصاطب حجرية برسم جلوس رواد الحمام حيث خلع الملابس والاسترخاء (لوحة رقم 4) .
تنوعت طرق تسقيف قاعة البراني بهذا الحمَّام حيث غُطِّيت الدرقاعة الوسطى بقبة حجرية (لوحة رقم7) محمولة على مثلثات كروية ناتجة عن تلاقي أرجل العقود المتوجة لواجهات الأواوين المطلة على الدرقاعة (لوحة رقم5, 6) , وقد فُتح قطب هذه القبة على هيئة دائرة يعلوها فانوس زجاجي , بينما غُطي كل إيوان بقبو حجري مدبب . ومن الملاحظ أن هذه القاعة جاءت على غير العادة في تصميم هذه القاعات حيث خلت من النوافذ سواء في الجدران أو في رقبة القبة الوسطى , وهي القاعة الوحيدة في أي حمَّام التي سمح فيها الفكر المعماري الإسلامي على تضمينها المزيد من فتحات النوافذ من أجل الإضاءة والتهوية .

3/2/1/7 الوسطاني (القاعة الدافئة)
هي القاعة التالية لقاعة البراني ويربط بينهما باب ضيق يغلق عليه مصراع خشبي , وهي بمثابة القاعة الدافئة بالحمَّام , و يُعْتبر في واقع الأمر مرحلة انتقالية من البراني المعتدل في حرارته إلى القسم الثاني الأكثر حرارة ، هذا من حيث الوظيفة . أما من حيث عمارة هذا القسم بحمام الشفاء فهو عبارة عن قاعة مستطيلة المسقط يغطيها قبو حجري نصف برميلي تتخلله فتحات مستديرة غطيات بالزجاج الملون وهي ما تُعرف بالمضاوي أو القمريات , وقد صممت بهذا الشكل لتسمح فقط بمرور الضوء للقاعة التي تخلو من أي فتحات أخرى لتظل محتفظة بدفئها , وعلى أحد جانبي القاعة مصطبة برسم راحة الرواد وإعدادهم للدخول إلى القاعة التالية الأكثر حرارة (لوحة رقم 8) .

4/2/1/7 الجواني (بيت الحرارة)

تُشكّل قاعة الجواني القسم الداخلي بالحمّامات الدمشقية وهي القاعة الحقيقية للاستحمام حيث الحرارة الشديدة المدرة للعرق . وقد حَرِص المعمار في تخطيط هذه القاعة على تطبيق المواصفات المعمارية التي اشترطها الفكر المعماري الإسلامي المتعلقة بعملية التنفس وعدم الضيق ، في تشكيل الحيز الفراغي لقاعة الجواني من حيث ارتفاع الجدران واستخدام القباب أو الأقبية في التغطية . والجواني بهذا الحمّام عبارة عن قاعة مستطيلة مغطاة بقبو نصف برميلي تتخلله مجموعة من القماري (لوحة رقم 9)، وألحقت بها أربع مقاصير أو خلاوي (لوحة رقم10, 11) ، يغطي كل منها قبة ضحلة بها بعض القماري ذات الزجاج الملون.

2/7 حمّام السمرة

1/2/7الموقع والتاريخ

يقع حمّام السمرة في البلدة القديمة من نابلس بحي السمرة في حارة الياسمينة , وهو أقل مساحة من حمام الشفاء المشار إليه تضاربت أيضاً أقوال من أرخوا لهذا الحمّام من الهواة والعامة فقد ذكر البعض أنه يعود إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وأشار البعض إلى تمام بنائه إلى سنة 1067هـ / 1616م، وهي اجتهادات تفتقر أيضاً إلى الدقة عند كل من كتب عن حمّامات المدن الشامية بفلسطين ، ولكن يمكننا – كما سبقت الإشارة عند تعرضنا لحمّام الشفاء – أن ننسبه أيضاً للعصر العثماني استناداً إلى تخطيطه وعناصره المعمارية والتي سبقت الإشارة إليها . ويُذكر أن السامريين الذين كانو يقطنون جبل جرزيم هم من شيدوا هذا الحمّام ، وظل مهملاً لفترات طويلة حتى أُجريت عليه حديثاً عمليات الترميم والتجديد وإعادة التأهيل عام 1996م تعميره حديثا سنة 1999م .

2/2/7 الوصف المعماري للحمّام وعناصر التكوين

يطل حمّام السمرة على الحارة بواجهة حجرية صماء يفتح بطرفها باب الدخول (لوحة رقم12) الذي يؤدي عبر ممر ضيق إلى قاعة الاستقبال (لوحة رقم 13) , وهي لا تختلف كثيراً في تصميمها وعناصرها المعمارية عن مثيلتها بحمّام الشفاء , تتوسط القاعة أيضاً درقاعة مربعة المسقط تتوسطها فسقية مثمنة البدن بوسطها نافورة رخامية (لوحة رقم 14) , ويسقف الدرقاعة قبة شاهقة ذات قطاع نصف دائري يعلو قطبها المفتوح فانوس زجاجي (لوحة رقم 16) , وهي أيضاً محمولة على مثلثات كروية ناتجة عن التقاء أرجل العقود التي تمثل واجهات الإيوانات الأربعة المطلة على الدرقاعة (لوحة رقم 15) . ثم تلي قاعة الوسطاني القاعة السابقة وهي ذات مسقط مستطيل ومغطاة بقبو نصف دائري تتخلله مجموعة كبيرة من القماري الزجاجية (لوحة رقم 17) . يلي ذلك القاعة الساخنة وتتميز عن نظيرتها بحمّام الشفاء بوجود مصطبة مستطيلة بوسط أرضيتها (لوحة رقم 18) , وبكل جانب من جوانب القاعة إيوان صغير يطل عليها بعقد نصف دائري , كما يفتح على القاعة الوسطى أربع مقاصير يغطي كل منها قبة ضحلة بها العديد من القماري الزجاجية الملونة .

8. أثر حمامات السوق على الحياة الاجتماعية

إلى جانب ما قدمته حمّامات السوق من خدمات اجتماعية خلال العصر الإسلامي من حفاظ على مستوى النظافة العامة ومن كونها منتدى الأخِلاء والأصدقاء ، ومتنفس للمرأة للخروج من بيتها ، بالإضافة إلى دورها كدور علاجية ومساهمتها في الحفاظ على الصحة العامة ، فقد لعبت دوراً هاماً ظهرت من خلاله تقاليد جديدة على المجتمع الإسلامي أصبحت من العادات الاجتماعية وخاصة في العصرين المملوكي والعثماني وهي تقاليد الزواج والختان . وأصبح الحمَّام يمثل جزءاً هاماً في مراسم الزواج حيث كانت زيارة كل من العروسين للحمَّام تكاد تكون جزءاً أساسياً بين هذه المراسم ، وقد اهتمت بذلك كل فئات المجتمع وتساوى في ذلك الغني والفقير وإن اختلفت زيارة كل منهما فقط في مقدار فخامة موكب الزيارة وأبهته . وإذا كانت المصادر التاريخية قد خلت من تسجيل مثل هذه العادات الاجتماعية إلا من لمحات قليلة لها وتبعها في ذلك الرحالة بصفة عامة ، فإن هذه التقاليد والعادات قد لفتت أنظار بعض الرحالة الأوروبيين المحدثين ، فأقبلوا على تسجيلها تسجيلاً دقيقاً منذ القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي . وإذا كان تسجيل هذه العادات لم يتم إلا في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي فمن المسلَّم به أنها كانت موجودة قبل ذلك ربما بقرون طويلة ويدلنا على ذلك تلك اللمحات القليلة التي وردت بالمصادر القديمة حيث أنه من المعروف أن العادات والتقاليد بصفة عامة لا تكون وليدة يوم وليلة ، ولكن من المؤكد أنها كانت قائمة ربما منذ عُرفت الحمَّامات , وتطورت هي الأخرى حتى أصبحت بالأسلوب الذي وصلنا تسجيله من المؤرخين المحدثين خاصة وأنها كانت من العادات الرومانية القديمة مما يرجح أنها عادات متوارثة ضمن ما ورثته الحضارة الإسلامية من الحضارات السابقة عليها .

1/8 حمَّام العُرس

يُعَدُّ حمَّام العُرْس أو ما يُعرف بزفَّة الحمَّام من احتفالات الزواج الهامة التي كان يحرص عليها أفراد المجتمع الشامي بصفة عامة سواء كانوا من الأغنياء أو الفقراء , حيث أصبح من تقاليد الزواج التي كان يحرص عليها النساء في مدن الشام ، حتى أن بعضهن لا تربطه بالحمَّام سوى تلك المناسبات .

اتسمت زيارة العروس للحمَّام بمظاهر الابتهاج والفرحة حيث كان يرافق العروس خلال زيارتها للحمَّام الذي يكون مُعَدَّاً لاستقبال هذا الحفل مسبقاً نساء عائلتها وصديقاتها المقربات ، ويتجمع الركب في قاعة البراني حيث يبدأن في خلع ملابسهن مغنيات مهللات ، ثم من الوسطاني يدخلن إلى الجواني في شبه موكب صاخب ، وبينما تُحمِّم النساء بعضهن تُجْلِس أُوسطى الحمَّام العروس أمامها وتشرع في تحميمها وبعد قضاء وقت بقاعة الجواني يخرجن جميعاً إلى البراني لتناول طعام العروس حيث يقضين وقتاً طيباً ليعدن مرة أخرى إلى الجواني لاستكمال حمَّامهن ، وتسمى جلستهن تلك بالخلوة وكان يترتب عليها مفاسد جمة ، وبعد الانتهاء يعدن للبراني ويرتدين ملابسهن ، وتتقدم أم العروس من الناطورة والأوسطى والبلانة لتكرمهن بما يتناسب وما قمن به .

وقد اعتادت النساء في بعض الفترات خلال العصر المملوكي وبداية العصر العثماني أن تطالب أزواجهن بالكثير من مصروفات الحمَّام والمبالغة في أجرة القيِّمة ، وقد ينتهي بها ذلك إلى الخصام مع زوجها ، وقد اعتدن أيضاً أن يأخذن معهن الحنَّاء والسدر والأشنان وغيرها ، كما اعتادت الموسرات منهن أخذ بقج الديباج والأواني النفيسة والأطعمة المنوعة ، ويلبسن أفخر ثيابهن .

ومن التقاليد الاجتماعية المتعلقة بحمَّام النساء في مدن الشام والتي اتُبعت في تلك الفترة أيضاُ ما يُعرف بحمَّام "الفَسَخ" (النفاس) وهو خاص بالنَفْسَاء ويكون اعتباراً من اليوم السابع للولادة حتى اليوم الحادي والعشرين . وقبيل اليوم الأربعين للنفساء كان هناك تقليد اجتماعي متَّبع مرتبط أيضاً بزيارة النفساء وأقاربها للحمَّام فيما كان يُعرف بحمَّام الأربعين ، وكان هذا الحمَّام مصحوباً بالأفراح والأغاني من جانب الأهل .

2/8 حمَّام الختــان

شاركت الحمَّامات العامة أيضاً منذ العصر المملوكي مروراً بالعصر العثماني في حفلات الختان كتقليد اجتماعي حيث كانت تستقبل مثل هذه الحفلات التي كانت في أغلب الأحيان تصاحب مواكب العُرس إلى الحمَّام ، فقد كان الطفل يُحمل على فرس غالباً ما يكون أبيض اللون ، ويرتدي هو أيضاً ملابس بيضاء ويسير معه الأهل والأقرباء في موكب كبير قبل إجراء عملية الختان متجهاً إلى الحمَّام وبعد العودة يتم إجراء هذه العملية على يد المزيِّن .

تعدى الدور الذي لعبه الحمَّام في حفلات الزواج والنفاس والختان في العصر المملوكي وكذلك العثماني إلى دور آخر له بُعد اجتماعي هام وهو مشاركته في الحياة الاجتماعية كمنتدى يشارك في الحياة اليومية حيث كان ملاذاً للأصدقاء يقضون فيه أوقات فراغهم ، ويعقدون فيه اجتماعاتهم حيث تدور مناقشات حول الأخبار السياسية والفكرية والأدبية ، كما كانت تُجرى فيه عقد الصفقات التجارية من خلال تلك الندوات بل كان أحياناً بمثابة وكرٌ تُحاك فيه المؤامرات وتدبر فيه المكائد .

ولم يقِّل الدور الذي قام به الحمَّام في الحياة العامة للنساء - بعيداً عن المناسبات المشار إليها - عن الدور الذي قدمه في الحياة العامة للرجال في هذه الفترة ، فقد مثل أهمية خاصة في حياة النساء بالمجتمع الإسلامي لقرون عدة حيث كان هو المكان الوحيد الذي يجدن فيه حريتهن كاملة ، فنادراً ما كانت تخرج النساء للزيارات المنزلية ، وكان الذهاب للحمَّام فرصتهن الوحيدة للاجتماع بصديقاتهن ، وفضلاً عن اعتباره الملاذ الأوحد الذي يجدن فيه فرصة لسرد الحكايات وإطلاق الشائعات وممارسة النميمة ، فقد كان أيضاً المكان المناسب لهن لاستعراض ملابسهن ومجوهراتهن ، وكن يستخدمن العطر وماء الورد ببذخ ، ويقضين أيضاً وقتهن في تناول الطعام ، وغيرها من سائر المتع .

وبسبب انكشاف النساء على بعضهن فلطالما تمت زيجات هناك ، وذلك عندما ترى الأم أو الأخت فتاة تروقها فتختارها عروساً لابنها أو لأخيها بعد سؤال معظم العاملات في الحمَّام وأخذ رأيهن في الفتاة المقصودة .

وهكذا نرى أن الحمَّام بأنشطته المتنوعة ومشاركته في العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية في المدن الشامية كان يمثل مؤسسة اجتماعية قامت بدور هام في المجتمع الإسلامي على مدى قرون عديدة سواء بالنسبة للرجال أو النساء وكذلك بالنسبة للقادرين والفقراء وحتى المعدمين ، ويتضح أهمية ذلك إذا عرفنا أن مدينة دمشق مثلاً كانت تكتظ في العصر المملوكي بصفة خاصة بأعداد كبيرة من الفقراء الذين أطلقت عليهم المصادر التاريخية مسميات متنوعة كالعوام والزعر والحرافيش وكان منهم السوقة والسقائين والمكارية وغيرهم من الطبقات المعدمة وأشباه المعدمة ، وأضيف إلى هذه الفئات في العصر العثماني فئات أخرى أكثر فقراً ، ومع ذلك لم توصد الحمَّامات في وجه أولئك أو هؤلاء بل كانت كمؤسسة

اجتماعية عامة تقدم لهم أيضاً خدماتها لقاء أجر زهيد يحصلون في مقابله على قدر من الترويح والنظافة إلى جانب تطهرهم استعداداً لأداء واجباتهم الدينية .

خاتـــمة

تناولت الدراسة موضوعاً في العمارة الإسلامية المدنية المتخصصة في تقديم الرعاية لأفراد المجتمع الإسلامي بشتى طوائفه وطبقاته في المدن الشامية وركزت الدراسة على الحمَّامين الباقيين بمدينة نابلس من العصر الإسلامي , وبيَّنت الدراسة مدى الحاجة إلى مزيد من الدراسات العلمية الحديثة المتخصصة في هذا النوع من العمارة التقليدية والحفاظ على ما تبقى منها خاصة في المدن الفلسطينية .

كما ألقت الدراسة الضوء على الأصول القديمة للحمَّامات وأن العرب المسلمين اقتبسوا فكرتها فقط بينما جاءت عمارتها نابعة من الفكر المعماري الإسلامي لتتماشى مع الذوق والفكر الإسلامي . بيَّنت الدراسة أيضاً بعضاً من العادات الاجتماعية في المدن الشامية وغيرها التي ترتبت على وجود الحمَّامات وارتيادها , وإلى جانب ذلك أظهرت الدراسة جانباً هاماً من الفنون الشعبية التي صاحبت وجود الحمَّامات سواء في أدوات الاستحمام أو في حفلات الزواج والختان التي كانت تقام بالحمَّامات .

اللوحـــات



لوحة رقم (1) حمام الشفاء : باب الخول .



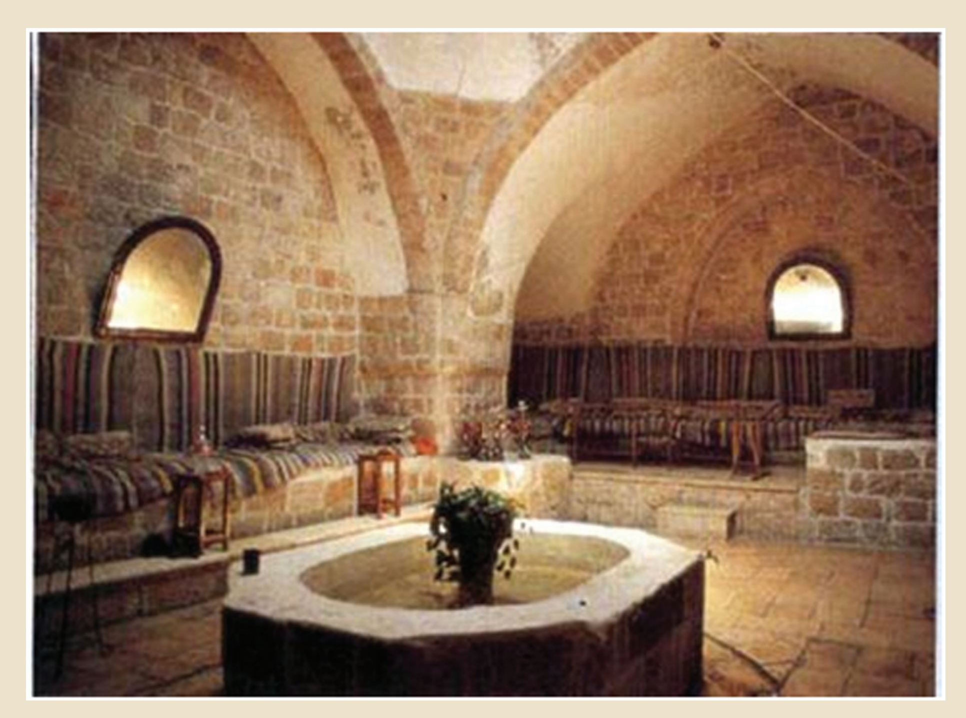
لوحة رقم (2) حمام الشفاء : قاعة البراني .



لوحة رقم (3) حمام الشفاء : أحد الإيوانات المطلة على الدرقاعة الوسطى .



لوحة رقم (4) حمام الشفاء : أحد الإيوانات المطلة على الدرقاعة الوسطى .



لوحة رقم (5) حمام الشفاء : أرجل العقود والمثلثات الكروية الحاملة للقبة .



لوحة رقم (6) حمام الشفاء : إلتقاء أرجل العقود لتكوين المثلثات الكروية .



لوحة رقم (7) حمام الشفاء : جانب من قبة قاعة البراني .



لوحة رقم (8) حمام الشفاء : قاعة الوسطاني .



لوحة رقم (9) حمام الشفاء : قاعة الجواني .



لوحة رقم (10) حمام الشفاء : أبواب المقاصير الملحقة بقاعة الجواني .



لوحة رقم (11) حمام الشفاء : إحدى المقاصير الملحقة بقاعة الجواني .



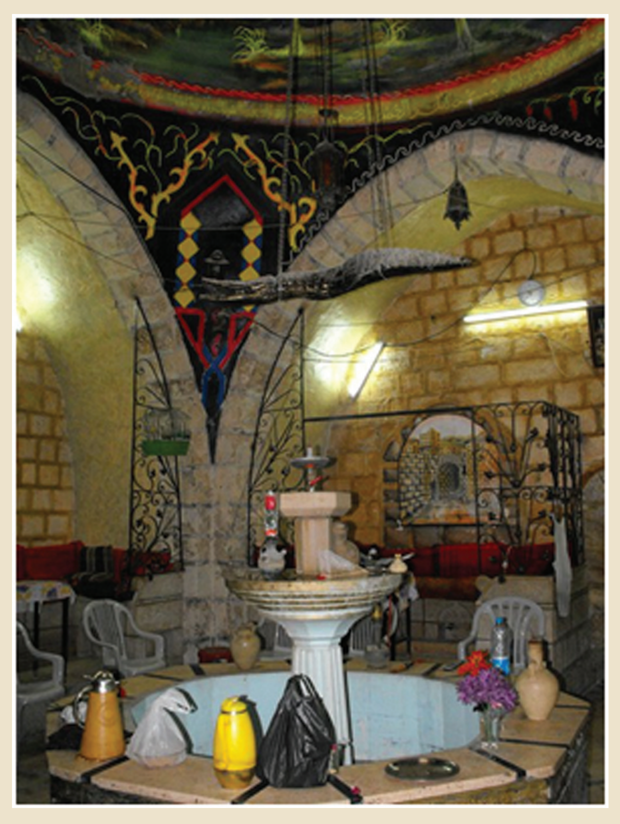
لوحة رقم (12) حمام السمرة : مدخل الحمام .



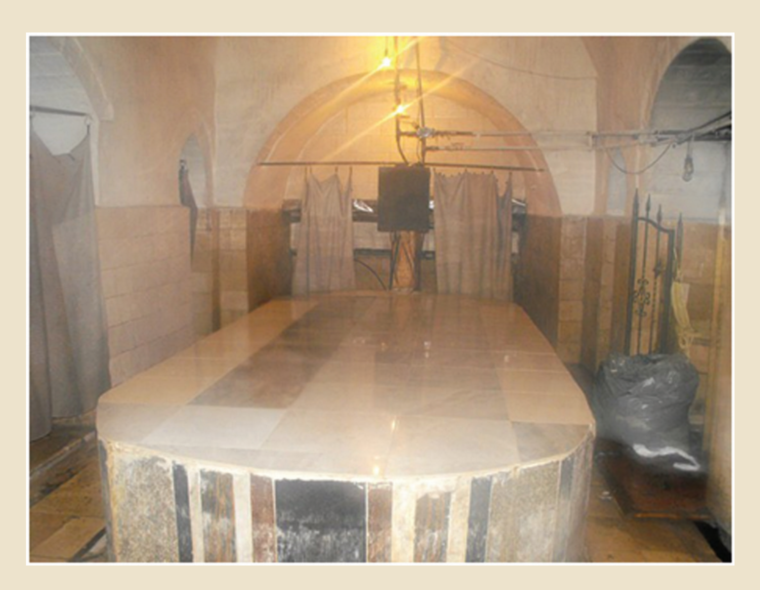
لوحة رقم (13) حمام السمرة : منظر عام لقاعة البراني .



لوحة رقم (14) حمام السمرة : الدرقاعة وتتوسطها الفسقية .



لوحة رقم (15) حمام السمرة : مثلث كروي ناتج عن إلتقاء ارجل العقود .



لوحة رقم (16) حمام السمرة : قاعة الجواني .